

بواعث شعر الطبيعة في الأندلس وخصائصه الهامة

*رحمى عمران

Abstract

As the Arabs settled in Andalus and the poets deported there, Arabic Poetry began to make its way into existence, strengthens, and diverse arts, and it did not invalidate a long time, even Andalusians started to say Poetry in Arabic language. Remarkably, considering the prevalence of poetry in the Andalusian Society, as poetry was not a moratorium on the professional poets, but it was shared by the princes ,ministers, writers, scholars, philosophers and doctors etc. Andalusian Society due to its cultural composition based on Arabic Literature and science, so the nature of Andalus evoked emotions and moved the imaginations, and all these made the poetry breaths of Andalusian Society naturally and innately as most of its families turned to the poets.

Allah bestowed Andalus charming nature and an ample beauty.. green mountains and beautiful plains, and twittering birds on Afnan trees... all of that has an impact in the beauty of Andalus, its environment is blessed with beauty, and imbued with shades, lush and charming colors , it breathes in fragrant and perfumed atmosphere compounded by the splendor and glory that permeates the shores of citizen's charm, and manifestations of sedition that sends a fascination and amazement in the soul. This was reflected in the Andalusian Poetry in general, where the crowd represent colorful diverse images and natural environment in this area called Andalus. Hence,the image of Andalus formed in converged minds with its descriptions, colors and divisions.

In this research paper emphasis is laid on the emitters of Natural Poetry and its significant characteristics in Andalusian Poetry.

Keywords: Introduction of the Poetry of Nature ,The Poetry of Nature in Andalusian Arabic Literature, Emitters and characteristics, Anthology of Andalusian Poetry.

شعر الطبيعة:

هام الإنسان بالطبيعة منذ أن فتح عينيه على محاسنها وتطلع بحب إلى جمالها وروضها ورونق سمائها . وقد وجد فيها الشاعر والكاتب ، ومنذ القدم ، مرتعاً لخياله ومقيلاً لأفكاره . وكانت وحي من استلهمها . تنشيه باهتزاز أزهارها وانسياب حداولها ، وتألؤ ظلّها ، وهدوء ظلّها . فيجود بالكلم الخالد واللوحه الناطقة . و" شعر الطبيعة " تعبير جديد في أدبنا ، جاءنا من الآداب الغربية وكان له فيها أصوله . وقد أطلق النقاد الغربيون على الشعر الذي كان من أهم مظاهر الحركة الإبداعية الرومانية (Romanism) في أواخر القرن الثامن عشر .

* الأستاذة المساعدة بقسم اللغة العربية جامعة بماءالدين زكريا، ملتان

وقد وجد الشعراء الإبداعيون في الطبيعة ميداناً فسيحاً لحرية العمل ، وتربة خصبة لنمو العواطف الإنسانية ، وموضوعاً أكثر ملاءمة للأسلوب القوي الصريح . والطبيعة كما يفهمها " الرومانسيون " صديقة ودية يجبوها لما تمنحه من جمال لحسهم وهدوء لنفوسهم . فيستسلمون إليها ويشاطرونها المناجاة ويوحون إليها بعواطفهم وآلامهم ، ويصورونها بقساوتها وجمالها . وكثيراً ما تكون ملجأً لنفوسهم التعبة القلقة ، ولذا فهم يفرون إليها ناشدين بالقرب منها طهارة الحياة ونعيم السعادة مع من يجون ويعشقون. وقد كان جان جاك روسو من أوائل الكتاب الذين غدوا الأدب الفرنسي بهذا الحس الطبيعي العميق .

على أن هذه الحركة كان لها جذور في الماضي ، فهناك الكثير من الآثار اليونانية التي تغتت بجمال الطبيعة وقد ظفرت الإلياذة والأوديسة بقسط جميل من هذا الفن . وفي الواقع أن شعر الطبيعة بمعناه العام لم يكن مقتصرًا على عصر دون آخر ، بل كان قسمة بين جميع العصور . إلا أنه ساد وعمقت فلسفته وتميز شعراؤه في الحركة الإبداعية .

شعر الطبيعة في الأدب العربي:

فما هي الطبيعة في أدبنا العربي ؟ وعلى أي شكل قالها الشعراء ؟

عرف الشعرُ العربي القديم شعر الطبيعة على الشكل الذي أوحى به البيئة البدوية ، وقد تهيأ للشاعر الجاهلي من هذا الفن حظ وافر ، فأخذ يتأمل الطبيعة ويثنها آلامه ويفتن بها ويصورها تارة ببصره وأخرى بقلبه . ويقف على أطلال الديار فتثير شجونه ، وتملك عليه الناقة البعير والفرس فؤاده ، وتستهويه الصحراء بجيوها ورمالها وآلها و واحاتها ونجومها وبرقها ومطرها . فالشعر الجاهلي مثل الحياة البدوية من هذه الناحية وصورها على النمط الذي مثله الشعر الرعوي في البيئة الغربية¹ ، فقد مثل هذا الشعر الرعوي الطبيعة بجيوها وطبورها وغاباتها وحقولها ، وبدا فيه الحب للحياة الريفية ، ولكنه لم يصدر في الجملة عن الملاحظة الذاتية والشعور بل عن التقليد والتخيل² .

وقد نحا شعر الطبيعة في فجره عند العرب هذا المنحى ، وبقي على الغالب صورة لما تراه العين أكثر من أن يكون مشاركة للعواطف التي توحى بها الطبيعة وانفعالا ذاتيا للشعور .

وقد تناول شعر الطبيعة في العربية ، كما تناول عند الغربيين ، الطبيعة الحية والطبيعة الصامتة ، ويقصد بالطبيعة الحية ما شتمت عليه من أصناف الحيوان ما عدا الإنسان ، وبالطبيعة الصامتة مظاهرها ووجودها المتجسد في سهولها وبحارها وسمائها وبواديها وحدائقها وحقولها وما إلى ذلك .

وقسم بعضهم الطبيعة الصامتة إلى طبيعية وهي ما أشرنا إليه ، وطبيعة صناعية وهي التي عمل الإنسان في تأليفها وتنسيقها كالفصوص والبرك والزخارف المرمية وما شابه ذلك .

والطبيعة الصامتة الطبيعية أكثر ملاءمة لمفهوم كلمة (الطبيعة) ، وأكثر إيجاء للحس الطبيعي . فهي التي تحدث في النفس ذلك الحس الشعوري الذي ينبض بجمالها ، وما أصناف الحيوان فيها ومنشآت اليد

البشرية إلا متممات منفصلة عن روح (الطبيعة) .معناها الحقيقي . وقد يكون وصف العصفور على غصنه أكثر تجاوباً مع شعر الطبيعة من وصفه مجرداً عن الغصن والشجر والدوح والماء .

وليس من صميم الطبيعة ، كفن شعري ، أن ندمج فيها وصف الجمل والذئب والأسد وما شابهها ، إن هذا الوصف أقرب إلى فن الوصف منه إلى شعر الطبيعة الذي نحب أن نجد فيه خصائص مميزة تبدو في هذا الحس الطبيعي والتجاوب الذاتي .

وإذا كان قد درج بعض النقاد على هذا التقسيم فنحن نقبله كأمر واقع ولكننا لا نستطيع إلا أن نعرف شعر الطبيعة بقولنا :

هو الشعر الذي يمثل الطبيعة وبعض ما اشتملت عليه في جو طبيعي يزيد جمالاً خيال الشاعر ، وتمثل فيه نفسه المرهفة وحبها واستغراقه بمفاتها .

وكلما كان شعر الطبيعة معبراً عن هذه المشاركة وهذا الاستغراق ومصوراً جمال الطبيعة وفتنها في شتى مظاهرها كان هذا الشعر مزدهراً ومحققاً غرض موضوعه . والطبيعة في الواقع معنى كلي يتعاون كل جزء من أجزائها على جعل هذا المعنى كائناً حياً خالداً يوحي لقلب الشاعر بالحب والجمال ويعت في نفسه شتى العواطف الإنسانية السامية .

فكيف وصف العرب الطبيعة إذا بعد أن قدمنا هذا التعريف ؟

لقد وصف الشاعر العربي منذ القدم الطبيعة وأحبها ولم تكن غريبة عنه ، ولكنها لم تتميز حينذاك كفن شعري قائم بذاته ، وقد كان أكثر شعراء الجاهلية بصوراً الطبيعة بقسميها الصامت والحي ، وكانوا على الغالب ينظرون إليها نظرة مصور ومع هذا فقد بدا على وصفهم الشغف بها و بظواهرها ، فهذا امرؤ القيس لم يجمد أمام مشاهد الطبيعة فوصف الليل وشبهه بموج البحر ووصف طولها فإذا به لا يتزحزح كأن نجومه شدت بحبال متينة إلى جبل يذبل ، ووصف البرق وجعل لمعانه كلمع اليدين تتحركان بسرعة أو كمصباح راهب ، ووصف الغيث وبدت فتنة الشاعر به ، ثم وقف على الأطلال وبكاها ، وبكاء الأطلال مظهر من مظاهر وصف الطبيعة الذي يتجلى في البث والشكوى والتجاوب مع البيئة الطبيعية .

وامرؤ القيس وصف أيضاً الطبيعة الحية فصور فرسه على شكل جدير بالإعجاب ، ووصف الناقة وحمار الوحش والظليم والنعامة وكان وصفه يدل على التفنن والاستقصاء .

ومن هنا يبدو أن وصف الطبيعة عند شعراء الجاهلية كان تعبيراً عن البيئة البدوية ببساطة وصدق . ولما انتقل العرب من البداوة إلى الحضارة وعرفوا نعيم الحياة وترف القصور وجمال الرياض ، تطور شعر الطبيعة ، ولكنه لم يستطع أيضاً أن يستقل كفن خاص وبقي هو والوصف ممزوجاً بأغراض أخرى كالغزل والمدح والطرود والخمر . وكانت الطبيعة التي وصفها الشعراء آنذاك تختلف عن طبيعة البدوي في عناصرها ومقوماتها .

وقد كان الحديث عن الطبيعة في العصور العباسية تعبيراً عن مظاهر هذه الحياة الجديدة اللاهية التي عرفتها هذه العصور ووصفاً لهذه الطبيعة الندية التي فتن بها الشعراء وغير الشعراء .

على أن شعراء العصور العباسية ، على رغم وصفهم لمفاتيح الطبيعة بدقة وإعجاب ، لم يكونوا يستطيعون الاندماج بها والتعبير عن خفايا شعورهم نحوها . لذلك نزعوا إلى الوصف المادي والعبث اللفظي متأثرين بتيار التأنيق والصنعة الذي ساد آنذاك ثم اشتدت وطأته في عصور الانحطاط حتى قضى على الروح العفوية في الشعر .

نقول هذا ونحن نعلم أن بعض الفحول في هذه الفترة قد استطاعوا أن يضيفوا إلى أوصافهم المادية للطبيعة حساً وذوقاً جعلهم يأتلفون معها ويستغرقون في نشوة جمالها ويبادلونها العاطفة بعاطفة والحب بحب . فهذا أبو تمام والبحثري وابن الرومي يقدمون لنا عن الطبيعة صوراً ذات نشاط وحياة ومباهج فائقة . فلنسمع ابن الرومي يصف غروب الشمس وصفاً تراءى فيه المشاركة الوجدانية على شكل لم يسبق إليه فيقول:

وقد رتقت شمسُ الأصيل ونفضت
على الأفقِ الغربيِّ ورَساً مُزَعزَعاً³
وودعت الدنيا لقضى نجبها
وشول بشقي عمرها فتشعشعاً⁴

وهذا ابن المعتز نراه تستهويه الصورة فيأتي شعره في الطبيعة آية على إرهاف حاسة البصر وحسن استقباله للألوان والأصباغ ودقة إخراجها للصورة والأشكال كقوله يصور احتجاب الشمس وراء السحب :

كأن الشمس يوم الغيم لحظ
مريض مدنف من خلف ستر

وقوله يصف الهلال وصفاً فيه بهاء الصورة وترفها :

انظر إلى حسن هلال بدا
يَهْتِكُ من أنواره الجندسا
كمنجل قد صيغ من فضة
يحصد من زهر الدجى ترجسا

ويستوقفنا في القرن الرابع الهجري شاعر عبقرى هو أبو بكر محمد بن أحمد الصنوبري وقد اجتمعت لديه أكثر مقومات شاعر الطبيعة وكان من هذه الكوكبة من شعراء الوصف الذين عاصروا المتنبى فطغت عليهم شهرته العظيمة . لقد كان الصنوبري شاعر الروض والزهر وقد صدر في شعره عن شعوره الصادق نحو الطبيعة .

تلك هي أسماء في سماء الشعر العربي ترسم لنا الشكل الذي قيل فيه شعر الطبيعة في المشرق أتينا بها كمدخل لبحثنا ، فما هي حال شعر الطبيعة في الأندلس ، وماهي الدواعي التي جعلت هذا الشعر يزدهر في تلك الأرض الأندلسية الحبيبة .

بواعث شعر الطبيعة في الأندلس وخصائصه الهامة:

منح الله الأندلس طبيعة فائقة فكانت أغنى بقاع المسلمين منظراً وأوفرها جمالاً . ترتفع فيها الجبال الخضراء وتمتد في بطاحتها السهول الواسعة وتجري فيها الجداول والأنهار وتغرد على أفنان أشجارها العنادل

والأطيار وتنساب الماشية والأنعام في مراعيها الجميلة ويعمل الفلاحون في حقولها الخضراء ويعطر النسيم جوّها المعتدل وبساتينها المشرقة . وقد تحدث عن جمالها كل من حلها . وأفاض المقرئ في وصف طبيعتها الفتانة وجناها الهيجة وانتهى إلى أن (محاسن الأندلس لا تستوفي بعبارة ، ومجاري فضلها لا يشق غباره) .

وقد كان من أثر جمال الأندلس أن شغفت بها القلوب وهامت بها النفوس ، فتعلق بها الأندلسيون جميعاً وأقبلوا يسرّحون النظر في خمائلها ويستمتعون بمفاتيحها ماشاء لهم الاستمتاع . وأخذ الشعراء والكتاب ينظمون كلمهم درراً في وصف رياضها ومباهج جناحها بعد أن فتحت في نفوسهم قول الشعر وجعلتهم يرون فيها كما يقول ابن خفاجة - جنة الخلد بمائها وظلها وأثمارها وأشجارها :

يا أهل أندلس لله دُرُّكُمْ ماءٌ وظلٌّ وأثمارٌ وأشجارٌ
ماجنة الخلد إلا في ديارِكُمْ ولو تخيّرت هذا كنتُ أختار

وقد ملكت معاني هذا الجمال نفوسهم واستحثت قرائح الشعراء فيهم وغدتها أفضل غذاء ، وكان

يكفي أن تهب على ساكن هذه الجنة نفحة من نسيم عليل ليصبح مع شاعرها ابن خفاجة :

إنَّ للجنة في الأندلس مُحتلِّي حُسنٍ ورِيًّا نفسِ
فَسَنَا صُبْحَتِهَا من شَنَبٍ ودُجَى ظَلَمَتِهَا من لَعَسِ
فإذا ماهبَت الرِيحُ صَبًّا صيحتُ : واشوقِي إلى الأندلسِ !

ولم يكن جمال الطبيعة في الأندلس هو وحده الذي ساعد على ازدهار شعر الطبيعة فيها ، بل إن الحياة الالهية نفسها التي أشرنا إليها والتي عاشها الشعراء كانت سبباً لهذا الازدهار ، إذ كانت الطبيعة مسرح حياة الشاعر الالهية ، وفي أحضانها استسلم للوهو وحبه وشمرة ، وعكف يصور هذا اللهو وهذا الحب وهذا الخمر في إطار الطبيعة مقدماً لنا لوحات فيها العبير والأصباغ والألوان .

فما هي تلك الخصائص التي امتاز بها شعر الطبيعة في الأندلس ؟

1- هو شعر يمثل تعلق الشعراء الأندلسيين ببيئتهم وتفضيلها على غيرها من البيئات ، بعد أن كان هواهم متعلقاً بصور الجزيرة العربية . وقد رأينا كيف أن ابن خفاجة يتعلق بالأندلس ويراهها جنة الخلد ، ويرى أن كل ما فيها جميل مطرب ، ولابن زيدون وابن حمديس ولغيرهما من الشعراء مثل هذا التعلق ، وهذا الحب كما رأينا فيما تقدم .

2- هو شعر يصف طبيعة الأندلس الطبيعية والصناعية ، فشعراء الطبيعة يصفونها كما أبدعها الله في الحقول والرياح والأثمار والجبال والسماء والنجوم ، ويصفونها كما صورها الفن مجلوة في القصور والمساجد والبرك والأحواض فيكمل تذوقهم لجمال الطبيعة وتتضح ألوانها وأشكالها أمام نواظرهم فيزدادون لها حُباً وبها تعلقاً ، وهم كذلك قد أتوا على أوصاف جديدة للطبيعة الحية كما فعل ابن خفاجة في وصف الفرس والذئب .

3- وهو شعر يصف الأقاليم الطبيعية المختلفة لبلاد الأندلس ، فكان لبعض الأقاليم شعراؤها الذين اهتموا بوصف ديارهم . فابن زيدون يتغنى بقرطبة وزهراتها . وابن سفر المريني يصف إشبيلية ، وأبو الحسن بن نزار يتعلق بوادي أشات فيصوره تصويراً ينم عن براعة بما يتركه في النفس من طراوة الندى والظل والشجر فيقول :

وادي الأشات يهيجُ وَجدي كلما أذكرت ما أفضت بك النعماءُ
للهِ ظِلُّكَ والمهجِرُ مسلَّطٌ قد بَرَدَتْ لفحاتِه الأنداءُ

وهكذا كان شعراء الأندلس يعبرون عن مشاهد طبيعية رأوها وعاشوا في رحابها وأحسوا بجمالها .

4- الطبيعة عندهم طروب تبعث جو الطرب ، ووصفها يمثل الجوانب الضاحكة الندية منها ، وأكثر شعرهم في الطبيعة وصف لمتزهاتهم وبجالس أنسهم ولهوهم في أحضانها كما بدا لنا من الأمثلة التي جئنا على ذكرها فيما تقدم .

5- وصف الطبيعة عندهم متصل بالغزل والخمر ، وهو طريق إليهما ، ولذا فقد رأينا شعراء الأندلس لا يذكرون الطبيعة إلا في رحاب الحب بل لا يذكرون الحب إلا في رحاب الطبيعة ، وهم بهذا يمنحون غزلم لوناً بهيجاً من الجمال تقدمه ابن زيدون وابن حمديس وابن خفاجة وغيرهم على امتزاج الطبيعة بالغزل والخمر وما يقتضيه هذا الامتزاج من لهو وطرب . فغزل الأندلسيين إذن يهتم ، إلى جانب وصف الحبوب ، بالمكان الذي ضم هذا الحبوب وهو غالباً الطبيعة ، بينما كان الغزل بالمشرق يهتم ، على الغالب ، بالوصف المادي وذكر الحوار واللقاء كما كان يفعل عمر بن أبي ربيعة وشعراء مدرسته ومن جاء بعده .

6- المرأة صورة من محاسن الطبيعة ، والطبيعة تجد في المرأة ظلها وجمالها ، ولذا كانت الحبيبة وروضاً وجنة وشمساً وقد قال المقرئ عن شعراء الأندلس : (إنهم إذا تغزلوا صاغوا من الورد حدوداً ومن النرجس عيوناً ومن الآس أضداً ومن السفرجل نموداً ومن قصب السكر قدوداً ومن قلوب اللوز و سرر التفاح مباسم ومن ابنة العنب رُضاباً)⁵. وهكذا كانت العلاقة شديدة بين جمال المرأة وبين الطبيعة فلا تذكر المرأة إلا وتذكر معها الطبيعة .

7- وشعرهم يعني بتشخيص الطبيعة وتصويرها على نحو إنساني تملؤه الحركة والنشاط كما في شعر ابن زيدون وابن خفاجة وغيرهما وكما فعل لسان الدين بن الخطيب في موشحته التي عارض بها موشحة ابن سهل والتي مطلعها :

جَادَكَ الغَيْثُ إِذَا الغَيْثُ هَمَى يَا زَمَانَ الوَصْلِ بِالأندلسِ
لَمْ يَكُنْ وَصْلُكَ إِلا حُلْمًا فِي الكَرَى أَوْ جِلْسَةَ المُخْتَلِسِ

ففي هذه الموشحة يجلل الحيا الروض فتبسم ثغور الزهور ، ويتناجى الماء والحصى فيغار الورد ويحمر حنقاً . ويتنبه الآس فيسرق السمع لفهم سر المناجاة .

والشعر الأندلسي يقدم لنا لوحات أخرى تتم عن امتزاج الشاعر بالطبيعة وصدق عاطفته نحوها وتشخيصه لها حتى أصبحت لسان نجواه وخففة قلبه .

8- وشعر الطبيعة عندهم لا يظهر كغرض مستقل إلا نادراً في بعض المقطوعات والقصائد ، وقد امتزج في أكثر الأغراض التي طرقها الشعراء الأندلسيون ، وكان الغزل كما رأينا أكثر هذه الأغراض امتزاجاً بالطبيعة ، إلا أن هذه الثنائية نراها أيضاً في المدح والرثاء والعتاب والفخر ، فهذا ابن زيدون يصف خلائق أبي الوليد بن جهور بالروض الضاحك . فيقول :

لِلْحَهْوَرِيِّ أَبِي الْوَلِيدِ خَلَائِقُ كَالرَّوْضِ أَضْحَكَةُ الْغَمَامِ الْبَاكِي

وكذلك بمدح المعتمد على نعمه فيراها حنة يضل فيها القريض :

أَوْرَثْتَنِي نُعْمَاكَ حَنَةً عَدْنٍ حَالَ فِي وَصْفِهَا فَضَّلَ الْقَرِيضُ

ثم يعاتب ابن زيدون صاحبه أبا حفص بن بُرد ويطلب منه أن يكون مثله دائم الوفاء فينظر إلى الطبيعة فيرى الآس ودمومة احضاراه ما يريد أن يعبر عنه :

لَا يَكُنْ عَهْدُكَ وَرَدًا إِنَّ عَهْدِي لَكَ آس

وهكذا فذكر الطبيعة يمنح هذه الأغراض صفة أندلسية تتجلى في اقتناص المعاني من طبيعة الأندلس .

9- وقد كان لطبيعة الأندلس وما احتضنت من غزل وهو وغناء أثر في اختراع قالب شعري جديد طبعته الأندلس بطابعها ألا وهو (الموشح) ذلك الفن الشعري المستحدث الذي غنى طبيعة الأندلس وهوها وعاش في نعيم ظلالتها وعبق ريحانها .

والخلاصة أن الشعراء قد استطاعوا أن يصفوا الطبيعة الأندلسية في كثير من الحالات ، من خلال نفوسهم ولكنهم نظروا إليها ، على الغالب ، نظرة مصور فبدت لعيونهم كثيرة الأصباغ والألوان وزينوها بصناعة لفظية وخيال بصري أنيق . ولم يستطيعوا أن يتجردوا من ماضي شعر الطبيعة وإن كانوا قد طبعوه أحياناً بطابعهم وأخضعوه لمقومات بيئتهم . ولئن استطاع بعضهم في عدد من القصائد أن يصف خلجات نفسه نحوها ، فقد قصروا بصورة عامة عن الاتحاد بها اتحاداً تاماً على طريقة المفهوم (الرومانتيكي) عند شعراء الغرب .

وهكذا بقي شاعر الطبيعة الأندلسي ، على رغم حسه العميق وحبه للطبيعة ، يصورها ويزخرها ببصره ويجسمها ويحملها بخياله ، فأجاد الصناعة ولم ينفخ فيها دائماً الروح .

وبعد دراسة شعر الطبيعة نجد أن وصف الطبيعة في الأندلس كان ، على الغالب الأعم ، شغف ومحاسنها وتصويراً حسياً لمباهجها ، تموج به ، بين حين وآخر ، خففة من حياة ودفقة من عاطفة صادقة .

وإننا لو اوجدون في المنتخبات الشعرية الآتية بعض الخصائص التي أتينا على ذكرها .

منتخبات من شعر الطبيعة في الأندلس

من شعر ابن حمديس:

قال ابن حمديس يصف الخمر في ظلال الطبيعة :

نحن في حنةٍ نباكرُ منها ساحلي جدولٍ كسيفٍ مجرد
صقلت منتهً مداوسُ شمس من خلال الغصون صقلاً مُجدد⁶

قال ابن حمديس يصف الليل والثريا والسهل وطلوع الفجر وشروق الشمس ، في مقطوعة مطلعها :

وليلٍ رَسَبْنَا في عُبَابِ ظَلامه إلى أن طَفَأَ للصبح في أفقه نَجْمُ
كَانَ الثريا فيه سبعُ جواهرٍ فواصلها جَزَعٌ به فُصِّلَ النَّظْمُ⁷

نرح ابن حمديس عن صقلية إلى إفريقية سنة 471 هـ وهو في سن الحداثة وصحب العرب هناك ،

فقال هذه الأبيات التي تصور تشوقه للطبيعة وهوائها وتصف ترحاله وتغربه في فيافيها :

إني لأبْسُطُ للقَبول إذا سَرَت حدّي وألقاها بتقبيل اليد⁸
وأضُمُّ أجنائي على أنفاسها كيما تبرّد حرَّ قلبٍ مُكَمِّد

قال ابن حمديس من قصيد يصف فيها مظاهر الطبيعة :

نثر الجوّ على الأرض برْدٌ أيُّ دُرٍّ لُنحورٍ لو جَمَدُ
لؤلؤُ أصدافه السحبُ التي أنجزَ البارقُ منها ماوَعَدُ
آرقَ الأحنفانَ رعدِ صَوْتُهُ كهديرِ القومِ في الشولِ حَفَدُ⁹

قال ابن حمديس يصف غديراً شقه نهر :

وزرقاء في لون السماء تَنبَهَتْ لِتَحِيكِها رِيحٌ تَهَبُ مع الفجر
يَشْتُقُّ حشاها جدولٌ متكفّلٌ بِسَقَى رياضٍ ألبستُ حُللَ الزهر

من شعر ابن خفاجة

وصف الجبل :

قال ابن خفاجة يصف الجبل وهي من درر قصائده التي تمثل امتزاج الشاعر بالطبيعة :

بعيشيك هل تَدْرِي أهوجُ الجنائب تَحُبُّ برحلى أم ظُهورُ النجائب¹⁰؟

وصف الليل :

قال ابن خفاجة في إحدى قصائده :

وليلٍ كما مدَّ الغراب جَنَاحَه وسثال على وجه السَّجلِ مدادُ
به من وميض البرق ، والليل فُحمةٌ شرارٌ ترامى والغمامُ زناد
سريتُ به أُحْييه ، لآحِيَّةِ السُّرى تموت ولا مَيَّتُ الصبّاح يُعادُ¹¹

وصف متزه :

قال ابن خفاجة :

وَمَجْرٌ ذَيْلٍ غَمَامَةٍ قَدْ تَمَّتْ
وَشَى الرَّبِيعَ بِهِ يَدُ الْأَنْوَاءِ¹²

قال ابن خفاجة يصف سرحة على نهر :

وَسَرْحَةٍ خَاضَ مِنْهَا ظِلُّهَا نَهْرًا
أَوْقَتَ عَلَيْهِ فَلَمْ تَنْقُصْ وَلَمْ تَزِدْ¹³

وقال يصف سحابة على الظلماء :

وَعَمَامَةٌ لَمْ يَسْتَقِلَّ بِهَا السُّرَى
سَحَابَةٌ الْأَذْيَالُ تُلْمَسُ بِالْيَدِ
فَمَشَتْ عَلَى الظُّلْمَاءِ مَشَى مَقِيدٍ
حَمَلَتْ بِهَا رِيحُ الْقَبُولِ سَحَابَةٌ

حديث كالنسيم :

قال ابن خفاجة في إحدى قصائده :

وَلَيْلٍ تَعَاطَيْنَا الْمَدَامَ وَبَيْنَنَا
وَأَطِيبُ مِنْهُ مَا تُعِيدُ وَمَا تُبْدِي
حَدِيثٌ كَمَا هَبَّ النَّسِيمُ عَلَى الْوَرْدِ
وَعَاوُدُهُ وَالْكَأْسُ يَعْجَبُ نَفْحَةً

وأكثر مطالع مدائح ابن خفاجة أبيات في وصف الطبيعة بمازجها الغزل ، وإليك ، بعد مقدمة غزلية ،

هذه الأبيات التي يصف بها الطبيعة من قصيدة يمدح بها أبا يحيى بن إبراهيم :

وَمَجْرٌ ذَيْلٍ غَمَامَةٍ لَبَسَتْ بِهِ
وَشَى الْحَبَابِ مَعَاظِفُ الْأَنْهَارِ
حَقَّقَتْ ظِلَالُ الْأَيْكِ فِيهِ ذَوَائِبًا
وَارْتَجَّ ر. دَفَأُ مَائِحُ النَّيَّارِ

وكان ابن خفاجة يمهّد لمدايحه بغزل رقيق فيه صنعة العبقري . ثم يقف عند مظهر من مظاهر الطبيعة

فيفصف غمامها أو رياضها إلى أن يقوده المطاف إلى الممدوح ، وقصيدته الرائية في مدح أبي الحسن بن الربيع

صاحب قرطبة تتبع هذه الخطة فلنسمعه وقد اتخذ من الطبيعة طريقاً لمدح الممدوح قال :

وَعَمَامَةٌ نَشْرَتْ جَنَاحَ حَمَامَةٍ
مَتَأَلَّقُ صَدَعِ الدَّجَى وَسَقَى الثَّرَى
وَالرِّقُّ قَدْ نَسَجَ الظُّلَامَ نَهَارًا
فَابْيَضَّ ذَا نُورًا وَذَا أَنْوَارًا

قال ابن خفاجة يصف الطبيعة في جو من الخمر :

أَحْسُ الْمُدَامَةِ وَالنَّسِيمِ عَلِيلُ
وَالنُّورُ طَرْفٌ قَدْ تَنَبَّهَ دَامِعٌ
وَالظِّلُّ خَفَاقُ الرِّوَاقِ ظَلِيلُ¹⁴
وَالْمَاءُ مُبْتَسِمٌ يَرُوقُ صَقِيلُ

قال ابن خفاجة يحن إلى حبه ظلال الطبيعة :

لَكَ اللَّهُ بَرَقَ تَرَاوَى فَسَلَّمَا
إِذَا مَا تَجَاذَبْنَا الْحَدِيثَ عَلَى الرُّى
وَصَابِحَ رَسْمًا ، بِالْعُدْبِ ، وَمَعْلَمَا¹⁵
بَكَيْتُ عَلَى حُكْمِ الْهَوَى وَتَبَسَّمَا

قال ابن خفاجة يصف فرساً كريماً ويذكر الطبيعة :

أَغْرَرَ كَرَمَ الْوَالِدِينَ نَجِيحاً¹⁶ تَخَيَّرْتُهُ مِنْ رَهْطِ أَعْوَجٍ سَابِحاً
 يَفُوتُ عَدُوًّا أَنْ يَوْمٌ حَبِيحاً¹⁷ خَفِيفاً وَلَمْ يَحْلُمِ بِسَوْطٍ كَأَمَّا
 مَلَأْتَ حَفِيَّ ظُلْمَةً وَسَنَا¹⁸ قَلٌ لِلْقِيحِ الْفَعَالِ : مَا حَسْنَا !
 قَاسَمَ حَفِيَّ ذَلِكَ الْوَسْنَا ؟ قَاسَمَنِي طَرْفُكَ الضَّنِي أَفَلَا

أشعار متفرقة:

قال ابن هانئ الأندلسي يصف أيام الربيع :
 مَا كَانَ أَحْسَنَهُ لَوْ كَانَ يُنْتَقَطُ¹⁹ أَلْوَلُوْ دَمْعُ هَذَا الْغَيْثِ أَمْ نَقَطُ
 كَمَا تَنْفَسُ عَنْ كَافُورِهِ السَّفَطُ أَهْدَى الرَّبِيعِ إِلَيْنَا رَوْضَةً أَنْفَاً

في هذا الوصف يعمد ابن هانئ ، على عاداته ، إلى طرافة التشبيهات ويقدم لنا صورة حية للطبيعة بما فيها من عوارض الغيث ومعركة السحاب والرياح ، وشعره في وصف الطبيعة لا يجعل منه شاعراً فذاً في هذا الغرض لأن عبقريته تبدو في الأغراض التقليدية كالمدح والوصف والحكمة . وهو في جميع هذه الأغراض يبحث عن المعاني التي تساعد على تصوير ما يريد من الأخيلا في أسلوب يعتمد المبالغة والصنعة والكلمات الطنانة.

قال بعض الأندلسيين يصف بركة عليها عدة فوارات :
 غَضِبَتْ بِحَارِيهَا فَأَظْهَرَ غِيْظَهَا مَا فِي حَشَاهَا مِنْ حَفِيٍّ مُضْمَرٍ
 قَالَ ابْنُ الْأَنْدَلُسِيِّ يَصِفُ مَاءَ بِالرِّقَةِ وَالصَّفَاءِ :
 وَالنَّهْرُ قَدِ رَقَّتْ غِلَالُهُ خَصْرَهُ وَعَلَيْهِ مِنْ صَبْعِ الْأَصِيلِ طِرَازٍ
 تَتَرَقَّرُ الْأَمْوَاجُ فِيهِ كَأَمَّا عُنْكَنُ الْخِصُورِ تَهْزُهَا الْأَعْجَازُ
 قَالَ بَعْضُ أَدْبَاءِ الْأَنْدَلُسِ :

وَالنَّهْرُ مَكْسُوٌّ غِلَالَةٌ فَضِيَّةٌ فَإِذَا جَرَى سَيْلًا فَتُوبُ نُضَارِ
 وَإِذَا اسْتَقَامَ رَأَيْتَ صَفْحَةَ مُنْصَلٍ وَإِذَا اسْتَدَارَ رَأَيْتَ عَطْفَ سَوَارِ
 قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ بْنِ الْعَطَّارِ أَحَدِ أَدْبَاءِ إِسْبِيلِيَّةٍ يَصِفُ مُهْرًا :

عَبَرْنَا سَمَاءَ النَّهَارِ وَالْجَوْ مُشْرِقًا وَليْسَ لَنَا إِلَّا الْحَبَابَ نَجُومًا
 وَقَدْ أَلْبَسْتَهُ الْأَيْكَ بَرْدَ ظِلَالِهَا وَلِلشَّمْسِ فِي تَلْكَ الْبُرُودِ رُقُومًا
 وَه :

لِلَّهِ بِهَجَّةٍ مَتْرَؤَةٌ ضَرَبَتْ بِهِ فَوْقَ الْغَدِيرِ رُوقَهَا الْأَنْسَامُ
 فَمَعَ الْأَصِيلِ النَّهْرُ دَرْعٌ سَابِغٌ وَمَعَ الضَّحَى يَلْتَاخُ مِنْهُ حُسَامُ
 وَه :

وبلوغ نفسي منتهى آمالها
والشمس قد شدت مطي رحالها

منها النفوس سواف ومعاطف
ومن الربيع قلائد ومطارف

واصرف عنان الهوى إليه
يرنو إليه بمقلتيه

والمزن ييكينا بعين مذب
في الأرض تحج غير أن لم تغرب

فأضحى مقيماً للنفوس ومقعدا
رواقص في خضر من العصف ميّدا

وشياً من التور حاكه القطر
والأرض تندى ثيابها الخضر

طرفاه حتى عاد مثل الزورق
غرق الكثير وبعضه لم يغرق

في عارض أكنافه تتألق
أضحت وجوه الأرض منها تُشرق

وغصنك نضر والجنا مريع
قريب وإلفي غائب وشسوع

دعاء حمام لم يت بوكون

ما كالعشيّة في رواء جمالها
ما شئت شمس الأرض مشرقه السن

وله :

لله حسن حديقه بسطت لنا
تختال في حلل الربيع وحليه
قال الأدب أبو عمر أحمد بن فرح الحياي :

للروض حسن فقف عليه
أما ترى نرجساً نضيراً

قال الأديب الأسعد بن بليطة :

لو كنت شاهداً عشية أمسنا
والشمس قد مدت أدم شعاعها

قال الحاجب ذو الرياستين أبو مروان عبد الملك بن رزين :

وروض كساه الطل وشياً مجدداً
إذا صافحته الريح حلت غصونه

قال علي بن أحمد أحد شعراء بلنسية :

قم فاستقي والرياض لابساً
والشمس قد عصفت غلاتها

قال سعيد بن محمد بن العاص المرواني :

والبدر في جو السماء قد انطوى
فتراه من تحت المحاق كأنه

قال عمر بن يوسف الحنطي :

أوميض برق أم سيوف تُبرق
دعه إذا ارتدت إليك وجوهها

قال عثمان بن إبراهيم بن النضر :

ألا يا حمام الأيك مالك باكياً
تغن ولا تنشج فإلفك حاضر

قال أحمد بن محمد بن عبد ربه :

ويحتاج قلبي كلما كان ساكناً

وإن ارتياحي من بُكاءِ حمامة
كذي شَجَنٍ داوَيْتَه بِشُجُونِ
قال ابن وهبون من شعراء شرقي الأندلس يصف النيلوفر وهو ضرب من الرياحين ينبت في المياه
الراكدة:

و بركة تزهو بنيلوفر
نسيمه يشبه رُوح الحبيب
حتى إذا الليل دنا وقتُه
ومالت الشمسُ لعين الغيب

قال ابن سهل الأشبيلي في جمال الطبيعة:

الأرض قد لبست رداءً أخضرا
والطَّلُّ ينثرُ في رُباهَا جوهرًا
هاحت , فَخِلْتُ الزهْرَ كافرًا بِمَا
وحسبتُ فيها الترابَ مسكًا أذفرا

وقال ابن سهل يصف مشهد الأصيل:

انظر إلى لون الأصيل كأنه
والشمسُ تنظرُ نحوه مصفرةً
لاشكَّ لُونُ مودَعٍ لِفِرَاقِ
قد خَمَّشَتْ خَدًّا من الإشفاقِ

الهوامش

1 الشعر الرعوي *la poesie bucolique* فن شعري وثيق الصلة بشعر الطبيعة *la poesie de la nature* ، وقد نما هذا الفن وازدهر في عصر النهضة مع الحركة الإنسانية . ولعل الشاعر الإبطال بترارك ممن ساعد على نموه بشغفه بالطبيعة و إبوائه إلى الجبال والغابات على حين كان معاصروه يعتبرونها مواطن للشياطين . والقصيدة الرعوية مقطوعة غنائية حوارية قصيرة ذات طابع ريفي تمثل مناظر الطبيعة . وقد كان لرعاة اليونان القدماء حظ في نشأة هذه الأغاني ، وازدهر هذا الفن في إيطاليا في عصر النهضة ، وتقدم في فرنسا في القرن السادس عشر متأثراً بريفيات القرون الوسطى .

2 انظر " شعر الطبيعة في الأدب العربي " للدكتور سيد نوفل ، ص 9 .

3 الورس : نبات أصفر . مزعجاً : متحرك .

4 شول : نقص حتى كاد ينتهي .

5المقري 323 /1 .

6 المداوس : مفردها مدوس ومدواس وهي المصقلة .

7 الجزع : خرز فيه سواد وبياض واحدته جزعة .

8القبول : ريع الصبا وتقابلها الدبور .

9 القوم : من الجمال ما لم يمسه حبل . حفد : أسرع .

10 هوج الجنائب : رياح الجنوب الموحاء . النجائب : مفردها نجبية وهي الناقة الكريمة .

11 يعاد : يزار .

- 12نمقت : زينت ، الوشى : النقش بالألوان .
- 13أرقت : أشرفت .
- 14الرواق : مقدم البيت ، وقد شبه الظل بيت مضروب يخفق هواء رواقه .
- 15العذيب : موضع . معلم الشئ : معهده ، ومنه معالم الطريق عكس مجالها .
- 16رهط : جماعة . أعوج : فرس كريم تنسب إليه الخيول العتاق . السابع : السريع . التحجب :
- النفيس في نوعه .
- 17يفوت : يسبق : ويغلب عدوه .
- 18أسنا : الضياء .
- 19الروضة الأنف : الجديدة التي لم يرعها أحد . السفت : السلة أو وعاء يحفظ في النساء الطيب .

المصادر والمراجع

- ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) : الحلة السرياء - نشر دوزي منها مقتطفات .
مدريد 1886 .
- التكملة لكتاب الصلة ، نشر جزءاً منه كوديرا في المكتبة الأندلسية (ج 5-6 مدريد 1887-1890)
ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مجلدان ، طبعة مصر 1304 .
- ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - نشرت منه كلية الآداب بجامعة القاهرة ثلاثة
مجلدات : القسم الأول في مجلدين ، ثم المجلد الأول من القسم الرابع . القاهرة 1939 - 1945 .
- ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) : كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس
وعلماتهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم - طبعة كوديرا في مجلدين ، مدريد 1882-1883 .
- ابن حزم : طوق الحمامة في الألفة والألاف - طبعة دمشق ثم طبعة القاهرة 1950 .
- ابن حمديس : ديوان ، طبعة بالرم 1883 ، روما 1897 وبيروت 1960 .
- ابن حوقل : كتاب المسالك والممالك - ليدن 1873 .
- ابن حيان : كتاب المقتبس في تاريخ رجال الأندلس (مخطوط وحيد في أكسفورد) نشر الأب
منشور أنطونيا الجزء الخاص بإمارة المنذر وعبد الله ، باريس 1937 .
- ابن خفاجة : ديوان ، طبعة القاهرة 1286 ، وطبعة مكتبة صادر ، بيروت 1951 .
- ابن خلدون : المقدمة .
- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخير في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان
الأكبر ، بولاق 1284هـ - 7 أجزاء .
- ابن خلكان : وفيات الأعيان - القاهرة 1310 هـ ، جزآن .

- ابن خير (أبو بكر محمد) : الفهرسة ، فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف - نشره ريبيرا وكوديرا في سرقسطة 1894 - 1895 .
- ابن رشيق : العمدة ، القاهرة 1325 - 1907م جزاء في مجلد .
- ابن زيدون : ديوان ، طبعة كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة ، القاهرة 1351 / 1932 . وطبعة على عبد العظيم ، القاهرة 1957 .
- ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب 1 و 2 ، بتحقيق الدكتور شوقي ضيف ، طبع دار المعارف بمصر 1955 .
- ابن سناء الملك : دار الطراز في عمل الموشحات ، نشر الدكتور جودت الركابي - دمشق 1949 .
- ابن شهيد الأندلسي : رسالة التواضع والزواجر - نشرها مع مقدمة طويلة بطرس البستاني ، بيروت 1951 .
- ابن عبد ربه : العقد الفريد - طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة 1941 - 1952 .
- ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب - نشر دوزي الجزأين الأول (عن المغرب) والثاني (عن الأندلس) في ليدن 1848 - ونشر ليفي بروفنسال الجزء الثالث عن الأندلس في عصر الطوائف والمرابطين ، باريس 1930 - وطبعت مكتبة صادر في بيروت الجزأين الأول والثاني سنة 1950 .
- ابن غالب : فرحة الأنفس - مقتطفات في نفع الطيب .
- ابن قزمان : ديوان - نسخته الوحيدة مطبوعة بالتصوير الشمسي في برلين 1896 - ونشر الدكتور نيكل هذا الديوان بحروف لاتينية مع مقدمة وتعليقات وترجمة إسبانية لبعض قطعه في مدريد 1933 .
- ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس - مدريد 1926 (مع ترجمة إسبانية) .
- ابن نباته المصري : سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون - القاهرة 1321 هـ .
- ابن هانئ الأندلسي : ديوان ، طبعة مصر . وطبعة بيروت .
- أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، القاهرة 1325 هـ - 4 أجزاء .
- تقويم البلدان ، طبعة دوسلان ، باريس 1840 .
- الأبنشيهي : المستطرف من كل فن مستطرف ، القاهرة 1330 هـ - جزاء .
- أحمد الإسكندري وأحمد أمين ورفاقهما : المفصل في تاريخ الأدب العربي ، القاهرة 1936 .
- أحمد ضيف : بلاغة العرب في الأندلس ، القاهرة 1342 / 1924 .
- أخبار مجموعة ، في تاريخ الأندلس : كتاب مجهول المؤلف - نشره وترجمه للإسبانية لافويتني إي ألكنترا ، مدريد 1868 .

- الإدريسي : وصف إفريقية وإسبانيا - نص عربي وترجمة فرنسية ، نشرهما دوزي ودخويه ،
ليدن 1866 .
- بالنيا (أنجيل جنثالث) : تاريخ الفكر الأندلسي ، نقله عن الإسبانية حسين مؤنس ، القاهرة 1955 .
- بطرس البستاني : أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث ، بيروت 1937 .
- البكري (أبو عبيد عبد العزيز) صفة إفريقية - طبعة دوسلان - الجزائر 1911 .
- الثعالبي : يتيمة الدهر - القاهرة 1947 .
- جبرائيل جبور : ابن عبد ربه وعقده - المطبعة الكاثوليكية ، بيروت 1933 .
- مقال في الأدب الأندلسي في مجلة الأبحاث التي تصدرها الجامعة الأمريكية في بيروت ، العددان
2 و3 من السنة الثانية ، حزيران - أيلول 1949 .
- جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، الطبعة الثالثة سنة 1936 .
- الحجاري : المعجب في أخبار المغرب - مقتطفات في نفع الطيب .
- حسين مؤنس : انظر بالنشيا ، وغومس .
- الحصري (أبو إسحاق) : زهر الآداب وثمر الألباب - طبعة زكي مبارك ، القاهرة 1344 /
1925 ، 4 أجزاء .
- حنا الفاخوري : تاريخ الأدب العربي - المطبعة البولسية ، حريصا - لبنان 1951 .
- خير الدين الزركلي : الأعلام - الطبعة الثانية في عشرة أجزاء ، القاهرة 1959 .
- سيد نوفل : شعر الطبيعة في الأدب العربي ، القاهرة 1945 .
- شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، منشورات مكتبة الأندلس ، بيروت 1956 .
- الفن ومذاهبه في النثر العربي ، منشورات مكتبة الأندلس ، بيروت 1956 .
- المقرئ (شهاب الدين أحمد بن محمد) : نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها
لسان الدين بن الخطيب ، بولاق 1079 هـ . أعاد نشره في عشرة مجلدات محمد محيي الدين عبد
الحميد ، القاهرة 1949 .